الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[الفيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ١٩ —

الزواج والصدمة الأولى :

لم يكن زواج هذا الشاعر الفيلسوف أمراً من أمور حياته الشخصية فحسب ، يتدبر قصته من يريد أن يستكمل فهم شخصيته ويحيط به من جميع أقطاره ، ليقف منها على ما هو بسبب من خلقه أو عاطفته ، وإنما كان هذا الزواج وما وقع له فيه إلى جانب ذلك حادثاً أثر فى تفكيره وفلسفته ، فعمد إلى توضيح فكره فى

« أنطونيو » : لكم وددت أنى لم أرها قط .

« أنوبربس » : ولكن تكون فى تلك الحالة يا سيدى قد فاتتك قطعة من الفن مدهشة ؛ وتصبح رحلتك بدونها جافة عقيمة

بهذه الأسطر الوجيزة عبر لنا شكسبير عن رأيه فى « ماري فتون » . إنها شر لابد منه

ثم يصيح على لسان «انطونيو» والحسرة تكاد تمزق أحشاءه « إلى أين قادتنى مصر ؟ »

إلى الهاوية ولا ريب .

كان ذلك فى ١٦٠٨ وكان قد مضى على تعرفه « بماري فتون » إحدى عشرة سنة ، ذاق فى أثنائها الأمرين ، فانطوى على نفسه ، وأخذ يخرج تلك المآسى الرائعة ، حتى وهن جسمه ، وانهدت أعصابه ، ونال منه الإعياء فانسحب إلى «ستراتفورد» ، مسقط رأسه ، ليقضى ما تبقى من حياته القصيرة تحت عناية ابنته ورعايتها .

(بغداد) يوسف موسى

كتيبات جديدة جرت عليه مخالفة من دافع عنهم من البرسبتيريز إياه ، وأدت به إلى مخاصمتهم ومحاربتهم ؛ ثم استقر أثر ذلك الزواج فى نفسه حتى كان ناحية من نواحى فلسفته فى قصيدته الكبرى فيما بعد ...

فى أواخر ربيع سنة ١٦٤٢ ، ذهب ملتن إلى الريف فى غير غرض معلوم اللهم إلا ما ظن أصحابه من طلبه الاستجمام ، وقضى ملتن زهاء شهر فى قرية فورست هل ، وتقع على نحو خمسة أميال من اكسفورد ، وهى القاطعة التى نبتت فيها أرومته فقد كان جده لأبيه أحد الموظفين فى الغابات الملكية هناك .

ونزل ملتن ضيفاً على ريتشارد پوول ، وكانت بين أسرة پوول وأسرة ملتن صلة معرفة ومودة .

وعاد ملتن إلى لندن فما كان أعظم دهشة أصحابه إذ رأوه يأتى ومعه مارى پوول زوجا له ، وكانت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان هو يومئذ يتشرف على الخامسة والثلاثين ؛ ولطالما رأوه عزوفا عن الزواج منصرفا عنه إلى كتبه وشعره ، يسرف أحيانا خياله الشاعر ويغلو فى وصف العفة حتى ليجعلها فى أن يعيش الإنسان أعزب أبدا !

وجاء مع العروس سيدات وفتيات من أهلها فأقمن فى بيت ملتن أياما نعمن فيها بما أقامه من زينات ومباهج وأفراح أحاط بها هذا العرس حفاوة منه بعروسه ، وشوقا منه إلى المسرة وقد تحمل سأم العيش وقسوته زمنا طويلا فى حرب القساوسة ومكابدة الدرس ومعاناة التعليم .

وانصرف أهل العروس وتركنها فى كنف زوجها الشاعر الفذ والفيلسوف المرموق المكانة ، ولكنها ما لبثت أن لحقت بهن ولم يكد ينتهى شهر العسل ، الأمر الذى دهش له أصحابه أكثر مما دهشوا لزواجه الفاجىء .

وكانت العروس قد أرسلت إلى أمها تسألها أن تكتب إليها لتحضر إلى بيت أبيها لتقضى هناك بقية الصيف ، وما كان أبواها ليجيباها إلى ما طلبت ولم يكد يمضى عليها شهر فى بيت بعلها ، لولا أنهما ظنا أن وراء طلبها سراً حملها عليه ؛ وكان ملتن يعلم ذلك السر فوافق على رحيلها لأنه أيقن أن لا شىء أجدر من

نصيحة أمها بأن يصلح شأنها ويبث فى قلبها شعور الواجب نحو زوجها ؛ فرحلت عنه عذراء كما جاءته عذراء ...

وحل الموعد الذى حددته لعودتها ولكنها لم تعد ، فكتب إليها ملتن فلم تجبه ، فأرسل إليها رسولا بكتاب منه فأصرت على صمتها وأهانت الرسول ، فوقع فى وهمه أنها لن تعود أبداً ، وابتأست نفسه بما فعلت وامتلأ منها قلبه غيظا وحنقا

وحار أصحابه فى أمرها كما حار من كتبوا حياته من بعد إلى أى شىء يردون مسلكها ! أكان ذلك منها لأن زوجها بيوريتانى من أنصار البرلمان فى حين كان أبوها من أتباع الملك وأنصاره وقد اشتعلت نار الحرب بين الجانبين ؟ أم كان ذلك لأنها كانت من قبل فى موطن يعج بالحياة والأنس حيث كان يغشى جند الملك بيت أبيها بين الفينة والفينة فتقع عيناها هناك على وجوه جديدة وتسمع أنباء جديدة ، فانتقلت منه إلى بيت شاعر عاكف على كتبه وأوراقه تشيع فى أنحائه الوحشة ويسود السكون ولا تسمع فيه من الأصوات إلا بكاء من يضربهم ملتن من طلابه ؟ أم نال من كبريائها أن أباها كان مديناً لأسرة ملتن بمبلغ من المال عجز عن أدائه ، فإن دخله من أرضه ومن مال زوجته لم يكف نفقات عيشه إلا بجهد نظراً لكثرة عياله ولما كان يهبط داره من الجند وغيرهم من أنصار الملك ؟ أم خيل إليها أنها وهى ابنة سبعة عشر عاما لم تحس بين يدى زوجها وقد كان عمره ضعف عمرها ما كانت تحس به لو أنها كانت بين يدى شاب فى مثل سنها ؟ أم أن ما بينها وبين زوجها من تفاوت عظيم فى الثقافة ومن اختلاف فى النظر إلى الحياة نتيجة لهذا التفاوت قد جعلاها تخجل من نفسها وتحس ضآلة شخصيتها إلى جانبه وتشعر أنها غير حقيقة بأن تدخل على نفسه من السرور ما يطمع فيه رجل من زوجته ؟

كل أولئك فى الواقع كان خليقا أن يلحق الفشل بهذا الزواج . أما أهل العروس فقد عولوا على ألا يردوا هذا الفشل إلا إلى الخلاف فى السياسة والدين بينهم وبين ملتن البيوريتانى البرسبتيرى الذى يميل إلى جانب الرؤوس المستديرة كما كان يسمى جند البرلمان بينما هم ينحازون إلى جانب الفرسان كما كان يسمى جند الملك فى هذه الحرب الأهلية الدائرة الرحى

على أنهم يحسون بينهم وبين أنفسهم أن ذلك لا يكفى وحده للمباعدة بين الزوج وبين عروسه على صورة لا تكون إلا لنفور أحدهما من الآخر نفوراً لا تجدى معه حيلة ، ولا تفسره إلا تلك الأسباب التى ذكرناها مجتمعة ، فقد انقضى شهر العسل ولم يقض منها وطرا ، وكان النفور من جانب العروس لأن الزوج ظل يدعوها بكتب متلاحقة لتعود إليه فلم يجد منها إلا إعراضاً وإصراراً ... .

وحق اللوم على ملتن فهو الذى اختارها زوجة له ، وكان جديراً أن يتدبر ما بينها وبين أبيها من فوارق وما بينه وبينها من تفاوت ؛ على أن عين الحب عمياء كما يقول شكسبير ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما يقول أبو الطيب ، وقد كان ملتن كما رأينا فى سالف مواقفه سريع التأثر بسحر المرأة يتهافت على ما يصوره له خياله الشاعر من الجمال تهافت الفراشة على الضوء ، فقد أحب كما علمنا من أمره وهو فى صدر شبابه فتاة وقعت عليها عيناه لأول نظرة فى زحمة لندن ولم يرها بعد ذلك أبداً ، حتى لقد عول على الهرب من لندن مخافة أن تصيده سهام كيوبيد . ولقد تعرض لهذه السهام فى إيطاليا كما رأينا ، وما زال يتحاماها وهو الحريص على عفته حتى وقعت عيناه على هذه الفتاة الريفية وكانت تهجس أحاديث الزواج فى نفسه كما تبين فى رثائه صديقه ديودانى ، فأقبل على الفتاة وقطع أمره فى غير روية ، فما به خوف اليوم من كيوبيد والمسألة مسألة زواج — وهكذا تصيده السهام ويملك قلبه الحب

واختلف مؤرخو حياة الشاعر فى هذه الفتاة أكانت جميلة ساحرة أم كان حظها من الجمال بحيث لا يصل إلى حد الفتنة ؟ فمنهم من يؤكد سحر جمالها ، وحجته أنها لو لم تك كذلك ما بلغت من نفس الشاعر بمثل هذه السرعة وهو الذى لا تخطىء الجمال عيناه . ومنهم من يؤيد الرأى الآخر وحجته أنه لم ترد فيما ذكر الشاعر عنها إشارة إلى سحرها ، وما افتتن ملتن منها إلا بما رآه من وداعتها وخفرها ونضرة الريف فى محياها وجسدها ، والشاعر خليق أن يضيف بخياله إلى محاسنها جمالا فترى عيناه فيها ما لا يرى غيره من الناس . على أن هؤلاء وهؤلاء لا يتجاوز

كلامهم الاستنتاج فلم يقع أحد منهم على دليل لما يقول ؛ ومهما يكن من شيء فإن عين الحب عمياء وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، ولقد كان ملتن تلقاء فتاة قروية فى السابعة عشرة إلا تكن فارهة الجمال فقد كانت فى روعة الشباب ، وقد جمع للزواج عزمه ، فما أسهل أن تريه عيناه فيها من معانى الجمال والطهر والعفة فى بيت أبيها الريفى ما يتغلب فى خياله الشاعر على كل عقبة ... ...

ولقد أقض الألم مضجعه لهذا الفشل وقد كان يطمع أن يسكن إليها ويجد بين يديها مودة ورحمة ، كما ملأ الحنق نفسه لما أصاب كبرياءه برفضها العودة إليه وإهانتها رسوله ، وقد كان يظن أن نصيحة أمها وحزم أبيها سيعودان بها إلى الصواب ... ...

ولا ريب أن ملتن كان يستشعر فى نفسه الخجل والندم كما استشعر الألم ، وذلك أن اختياره مارى پوول متأثراً بمظهرها على هذه الصورة العاجلة إن هو إلا اندفاع العاطفة فى فورة من فوراتها ، وإلا فماذا دفعه إلى هذا الاختيار ولم يك يعرف مارى پوول من قبل حتى يظن أنه أنس فيها من الصفات ما يهتم به شاعر مثله كالذكاء والثقافة وبراعة الحديث وما يتصل بها ؛ وكان خليقاً وهو الذى طالما افتخر بامتلاكه زمام نفسه وطالما اعتقد أنه قادر على كبح جماح عاطفته أبدا ، أن يندم ويألم فقد سيطرت عليه عاطفته ، وتغلب الجسد فى نزوعه الشديد نحو رغبة له اتقدت ، وليته حقق بالزواج تلك الرغبة ؛ فلئن تزوج فما هو بمتزوج إذا صح هذا التعبير ، ثم إنه أخذ يطفىء فى نفسه جذوة جسده ووقدة عاطفته مستعينا بالصبر والصوم ؛ ولقد أثر انقياده لعاطفته على هذا النحو على ما كان فيه من كبرياء أثرا عميقا فى حياته وفكره سوف يظهر فى فلسفته وفنه .

ومما زاده غما وألما أنه كان بعد أن هجرته زوجه لا يستطيع بالضرورة أن يتزوج غيرها ، وهذا فى ذاته قيد ، وإن نفسه لتنفر من كل قيد وتستعصى على كل قيد ؛ وهل كان يستطيع أن يحمل نفسه على قبول هذا القيد لأن الدين أو لأن الكنيسة تحول بينه وبين الطلاق إلا وفق شروط معينة ؟ ومتى خضع إلا لما يهديه إليه فكره ، وقد نزع إليه وجدانه وتعلق به إيمانه ؟ وإذا كان هو نصير الحرية الذى دافع عنها أمام تعصب القساوسة فكيف يتخاذل عن نصرتها الآن ؟ ألا يستطيع أن يدع الجانب الشخصى من فشله فى زواجه فلا يتعرض له ثم يخلق من الحادثة فى ذاتها موضوعا عاما ؛ فيكتب دفاعا عن الحرية فى ناحية من نواحيها وأعنى بها الناحية الشخصية ؟ بلى إنه لقادر على ذلك وإنه لفاعله ، وإنه لنصير الحرية الشخصية اليوم .

ويمكننا أن نتصور حالته النفسية فى هذا الموقف ، فهذا رجل ذو كبرياء وأنفة ، طالما افتخر بتغلبه على شهوات نفسه ، وقد عاش حتى الخامسة والثلاثين من عمره عيشة الطهر والعفة مستعينا بعزمه المصمم على قهر وساوس الشباب ، يسمو فى طهره على الناس ليكون أهلا لرسالته التى يستشرف لها ، ويقبل على دراساته ليتهيأ لما يتطلع إليه ، ثم إذا به يجد نفسه ، وقد ارتطم فى ورطة بسبب انقياده لعاطفته بعد طول امتناع ، ولئن كان ما وقع فيه لم يعد كونه أمرا مشروعا هو الزواج ، إلا أن فشله فى اختيار زوجته كان نتيجة تسلط عاطفته على عقله أو تغلب جسده على روحه ، وإن ذلك ليشعره بينه وبين نفسه أنه لم يعد إنساناً كسائر الناس ؛ ولكم نال ذلك من كبريائه وأدخل الغم على نفسه ، فضلا عن أن ما انتهى إليه إنما هو حد من حريته .

على أن كبرياءه تأبى عليه إلا أن يلتمس مخرجا لنفسه فما يطيق أن يذعن ، ويجد ذلك المخرج فى تقريره أن العاطفة فى ذاتها من الأمور المشروعة التى وضعها الله فى الإنسان ، وما لم تنطو على جريمة فلن يضير المرء أن تقوده إلى خطأ ؛ ويستنكف أن يشير إلى مسألته الشخصية ، فيعمد إلى فلسفة عامة فى الزواج والطلاق ينفس بها عن نفسه ويرأب بها ما تصدع من كبره ، فإذا كانت العاطفة أمرا مشروعا فوجب أن تكون العلاقة بين الزوجين على أساسها ، فيكون الزواج اتفاق عاطفتين أو التقاء روحين ، فإن كانت العلاقة على غير هذا الأساس ، وكانت مجرد التقاء جسدين ، أو كانت العاطفة من ناحية لا تقابلها مثلها فى الناحية الأخرى بطل الزواج ووجب الطلاق ؛ وهو إنما يبتكر بذلك سببا للطلاق لم يتجه إليه أحد قبله ، ومرده إلى المنطق لا إلى

شريعة سماوية أو قانون بشرى ؛ على أن كلامه هذا فى الوقت نفسه ينطوى على تأنيب منه وزجر لنفسه ، وإلا فهل فكر قبل اختياره مارى هل كانت عاطفتها تجاوب عاطفته ، أم كان الأمر أمر افتتان بها لم يتمالك عنده نفسه ؟ وإذا فهو الملوم وحده .

ولكنه يقدر وقوع الخطأ ، فقد يخدع الإنسان فيمن يخطبها لتكون زوجه ، ويحس أنها تبادله عاطفة بعاطفة ؛ فإذا وقع الخطأ فعلا فما السبيل إلى تجنب ما يجره ذلك الخطأ من عواقب هى شر منه ؟ لا سبيل فى رأيه غير الطلاق ، وإلا فكيف يتباعد الزوجان ولا يستطيع كلاهما أن يتزوج غير الآخر ؟

بهذه الآراء البالغة الجرأة والخطر فى أمر له أهميته وخطورته فى المجتمع قذف ملتن الناس فى كتيب نشره فى أغسطس سنة ١٦٤٣ وسماه « قانون الطلاق ونظامه » ، ولم يك غافلا عما كانت مثل هاتيك الآراء خليقة أن تثيره من سخط وغضب ودهشة تشبه الجزع فى الأوساط جميعاً ، ذلك أنه كان يدرك أنه كان طلعة فى تناول الموضوع على هذا النحو ، ولكنه كما يقول الانجليز أحرق القوارب كلها من ورائه وليس يبالى أيبلغ ما يريد أم يهلك دونه .

ويزخر هذا الكتيب بحماسة شاعر عظيم تدفعه للكلام روح قوية نبيلة وألم يملأ جوانحه لما لحق كبرياءه ، وغضب عاصف كما هاج البحر ثائر كما تأججت النار ، ولذلك تقع فيه على مظاهر الحماسة قوية رائعة ، فيرسم الشاعر طائفة من المثل العليا للحياة الزوجية ، ويصور الألم والخيبة التى تعقب الزواج الفاشل ، ويبدع إذ يستند إلى المنطق والعقل فى براهينه ، وإذ يسوق الأدلة التى تؤيد رأيه من الانجيل ، وإذ ينقض ما ينهض فيه حجة عليه ، ويبلغ ذروة الإقناع والفصاحة إذ يدعو إلى تحرير العقل من حرفية القانون ، وهو فى ذلك كله يصل من البلاغة إلى ما لم يصل إليه فى كل ما كتب قبله ، والحق أنك تجد فى هذا الكتيب ملتن الرجل وملتن الفيلسوف وملتن الشاعر على خير ما يكون من حالاته فى ذلك جميعاً وإن كان النثر وسيلته وأداته .

وكان يعتقد ملتن أنه خرج من الشر الذى لحقه بخير يسوقه للناس جميعاً ، فهو يخيل إليه أن ما انتهى إليه من رأى فى الطلاق إنما هو خلاص للبشر من قيد بغيض ظالم يوبق أرواحهم ويريهم مثل حياة الجحيم فى هذه الدنيا ، وذلك هو معيشة الزوجين معاً على رغمهما لأنهما ارتبطا برباط الزواج .

وكانت تخف عنه آلام نفسه كلما ذكر أنه إنما يكتب ما يكتب ليخفف عن الناس آلامهم ، فلا ضير أن يتحمل الألم ما دام الناس سيفيدون مما حاق به من سوء المصير ، على أنه أنفة منه وتكبراً حريص على ألا يشير بشىء إلى مسألته الشخصية .

(يتبع) الضيف

إدارة البلديات العامة — عمائر

يشهر مجلس الفيوم البلدى فى المزاد العلنى بيع محصول ٢٦ فداناً تقريبا من الزيتون بمزرعة المجارى ويمكن للراغبين فى المزايدة معاينتها وقد تحدد ظهر يوم ٢٣ / ٧ / ٤٦ للمزايدة بديوان المجلس

٥٦٠٣

صدر اليوم :

كتب وشخصيات

بقلم

٢٥ يطلب من مجلة الرسالة